الفصل الخامس

محمد غلاب

رائد التأريخ للفلسفة الشرقية والغربية

الفصل الخامس

محمد غلاب
رائد التأريخ للفلسفة الشرقية والغربية

أولاً: مكانته الفكرية

يعد د. محمد غلاب أحد أهم المفكرين الرواد الكبار من خريجي المدرسة الفلسفية الأزهرية فى القرن العشرين، وقد جمع بينه وبين طه حسين وشائج كثيرة أهمها تحدي فقد البصر والريادة فى مجال التخصص؛ فكما كان طه حسين رائدا للأدب العربي، كان محمد غلاب رائدا للفكر الفلسفي، وكلاهما من خريجي الأزهر الشريف. وهو يعد أول من اهتم بالتأريخ للفلسفة الشرقية والغربية ومن أوائل من لفتوا الانتباه إلى تأثير الفلسفة المصرية القديمة على الفلسفة اليونانية سواء في نشأتها أو فى تطورها.

ثانيا: نبذة عن حياته

ولد د. محمد غلاب حوالي عام 1899أو فى بداية القرن العشرين في بلدة بني خالد التابعة لمركز ملوى بمحافظة أسيوط. بعد أن حفظ القرآن الكريم تلقى تعليمًا أزهريًا، وحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية سنة 1924، ثم التحق بالجامعة المصرية القديمة وانتسب لمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة، وحصل على بعثة سافرمن خلالها إلى فرنسا سنة 1926، وسرعان ما حصل على دكتوراه في الآداب من جامعة ليون سنة 1929، وقدعاد إلى مصر في العام نفسه، فعمل بالصحافة وأنشأ مجلة «النهضة الفكرية» سنة 1930، كما اشترك في تحرير مجلة «الأزهر»، وعمل بالتدريس بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف عند إنشائها سنة 1932،

واستمر في عمله هذا وترقى في وظائف هيئة التدريس حتى أصبح أستاذًا للفلسفة، واستمر في عمله بعد إحالته إلى التقاعد سنة 1959. ولقد توفي د. غلاب في 26 يوليو 1970بعد حياة حافلة بالعطاء الفكري فى مجالات الفلسفة والأدب وخدمة الاسلام.

وقد ترك إنتاجًا علميًا غزيرًا ومتنوعًا؛ حيث بلغت مؤلفاته نحو خمسة وخمسين مؤلفا مابين كتبا مؤلفة أو مترجمة ،مضافا إليها نحو مائة بحثا نشرت فى مجلة الأزهر وأكثر من خمسين بحثا نشرت فى مجلات الرسالة - السياسة - المشرق اللبناني - النهضة الفكرية - منبر الشرق وغيرهم من المجلات الفكرية المصرية والعربية، وقد عكس ذلك سعة أفقه وقدراته العلمية والعقلية والفلسفية المتميزة، وهي قدرات تغلبت على ما ابتلى به من فقدان البصر.

ثالثًا: رؤيته التأريخية للفلسفة وجهوده فى ذلك

لقد كان الدكتور غلاب من أوائل من شغلوا بالتأريخ العام للفلسفة في كل العصور؛ فهو قد اهتم بدراسة تاريخ الفكر الإنساني الفلسفي في مراحله المختلفة، وألف في تاريخ الفلسفة الشرقية والإغريقية والاسلامية والأوربية الحديثة كتبا مرجعية مهمة، وقد بدأها بكتاب عن «الفلسفة الشرقية» تحدث فى بدايته عن كيفية البحث الفلسفي وفوائد دراسة تاريخ الفلسفة وأهمية دراسة الفلسفة الشرقية رافضا الربط بينها وبين العقائد الدينية قائلا أنه سيحاول «فصل المذاهب والآراء العقلية من الدين» (الفلسفة الشرقية، القاهرة، بدون دار نشر، 1938 - ص12) رغم اعترافه بأن الديانة المصرية هى الأسبق فى النشأة وأنها «أولى الديانات البشرية التي ظهرت على وجه الأرض، وأنه لم تظهر ديانة فى الدنيا إلا ولها فى عقائد وادي النيل عنصر، وأن كل الديانات الانسانية ليست إلا فتاتا متساقطا حول مائدة بلاد الفراعنة الذين سبقوا جميع سكان الكرة الأرضية إلى حمل لواء المعرفة وفتح كثير من مغلقات العلم وحل ألغاز الكون» (نفسه، ص22)، وقد نجح فى ذلك بالفعل؛ حيث أنه بعد الحديث عن الديانة المصرية وتطورها من العصر الأول الذي شهد تقديس الحيوانات إلى عصر تال تم فيه تأليه الفرعون إلى عصر ثالث بدأت فيه النظريات التفسيرية لحقيقة الوجود وأصل العالم وبدا ذلك بوضوح فى الاعتقاد بالتاسوع المقدس فى عصر مدينة الشمس الذي كان مقدمة لظهور الفلسفة لدى المصريين حيث ذهب كهنة مدينة الشمس إلى القول بأن «الفكرة لاتمنح الكائن الوجود

فحسب، بل إنها هي التي تحفظ عليه وجوده الدائم فإذا قدر على أي كائن ما أن يزول اسمه من فكر الإله فإنه يهوى فى الحال إلى العدم المطلق» (نفسه، ص51)، وقد اعتبر د. غلاب أن هذه الرؤية الفلسفية هي أصل نظرية المثل الأفلاطونية قائلا «أنه ليس من العسير على الباحث المتقصي أن يستكشف عناصر المثل الأفلاطونية واضحة جلية فى هذه الفلسفة المصرية التي سبقت أفلاطون بأكثر من ثلاثة آلاف سنة لأن أفلاطون اعتبر أن جميع هذه الكائنات المادية التي تدب على الأرض خيالات لا حقائق، ولا يعترف بوجود حقيقي إلا لعالم الفكر المجرد عن علائق المادة وغواشي الطبيعة» (نفسه)، ولقد اعتبر د. غلاب أنه بهذا الاكتشاف يقدم «ردا جديدا على أرسطو وسانت هلير ومقلديهما وأذنابهم القائلين باستقلال الفلسفة اليونانية وعدم تأثرها بالفلسفات الشرقية كما أن فيه ردا بليغا على ذلك الفريق الذي يحط من شأن العقلية الشرقية، لأن مذهب المثل - وهو أصل ما أنتجته العقلية الغربية - هو مشيد على أساس هذه النظرية المصرية مافي ذلك لبس ولا ارتياب» (نفسه، ص52)، وقد تحدث د. غلاب أيضا عن نظرية النفس عند المصريين ورفض نقد القائلين «بأنها فلسفة مادية ساذجة، لأن للنفس عند المصريين عدة شخصيات، فإذا كانت احدى هذه الشخصيات مادية تأكل وتشرب بعد الموت من الضحايا والقرابين وتحتاج إلى مأوى تقيم فيه وثغرة تنفذ منها، فلا ينزل ذلك بفلسفتهم إلى المادية، لأن قولهم بوجود الشخصية الأخرى التي هي جوهر الأسرار الإلهية يصعد بهذه الفلسفة إلى أسمى آواج الروحانية» (نفسه، ص55 - 56)، وقد تساءل: « كيف يجرؤ هذا البعض من العلماء على أن يرموا فلسفة المصريين بالمادية الساذجة من أجل قولهم بافتقار الروح إلى الأكل والشراب والمأوى ثم هم يسوغون لأنفسهم أن يشيدوا بفلسفة تاليس وانا كسيماندر وأنانكسيمين وديوجين وهم لم تخطرهم الروح ببال، أو بفلسفة ديموقريت و إيبيكور اللذين -وان قالا بالثنائية - لايميزان الروح عن المادة إلا بنفس الميزة التي ميز بها المصريون من قبل «الدوبل» أو الشبح عن الجسم؛ إذ هي عندهما مؤلفة من ذرات أدق وأكثر شفافية من ذرات الجسم، وهذا هو كل مابينهما من فرق، أضف إلى هذا أن أفلاطون نفسه - وهو ثاني أجلاء فلاسفة اليونان الروحانيين - يرى أن النفس مكونة من ثلاث قوى: إحداها جوهرية خالدة، والاثنتان الأخريان ماديتان قابلتان للفناء. فهل عيب التفكير المصري هو أنه سبق غيره إلى النظريات الراقية بأكثر من عشرين قرنا؟» (نفسه، ص56).

وقد أرخ د.غلاب بعد ذلك لنشأة وتطور الفكر الفلسفي الهندي حيث تحدث عن الهند والفكر الديني الهندي فيما قبل التاريخ ثم عن الفيدية وظهور الفلسفة فى الهند ثم عن البرهمانية الأولى وظهور الديانة والفلسفة البراهمانية ثم عن المدارس الفلسفية المستقلة مثل المدرسة الوفسطائية والفلسفة المادية والمدرسة اليوجية والمدرسة الجينية أو الذرية ثم عن البوذية كديانة وكفلسفة ثم عن البرهمانية الثانية، وانتقل إلى الحديث عن المدارس الفلسفية المحدثة فى الفلسفة الهندية. وقد أرخ بعد ذلك وعلى نفس النحو للفلسفة الفرسية القديمة وخص بالحديث المفصل كلا من الزرادشتية والمانوية والمزدكية. وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الفلسفة الصينية القديمة مميزا بين ثلاثة عصور؛ العصر الأول وهو عصر عقيدة عبادة السماء ' العصر الثاني الذي أطلق عليه العصر المنهجي وهو عصر الفلاسفة لاهو-تسيه وكونفشيوس ومانسيوس والمدرسة السوفسطائية، العصر الثالث وهو الذي يمتد من نهاية العصر المنهجي إلى العصر الحاضر. وقد اختتم هذا التأريخ المهم للفلسفة الشرقية القديمة بالحديث عن الفلسفة الكلدانية التي نشأت بين ذلك الشعب الذي كان يقطن على شاطئ نهر الفرات من شمال بابل إلى الخليج الفارسي معرفا بالديانة الكلدانية وبالفلسفة الكلدانية، وأكد فى نهاية حديثه عن الفلسفة الكلدانية «بأنها هي ومصر واضعتا البذرة الأولى من بذور التوحيد فى حقول الديانات واللبنة الأولى فى صرح الأخلاق والسياسة والقانون والعلوم الرياضية والطبيعية» (نفسه، ص329). وقد كشف د. غلاب فى خاتمة هذا الكتاب عن الفرضية التي أراد تأكيدها من خلاله وهي: »أن الشرقيين سبقوا الاغريق فى الفلسفة النظرية بمزاولة حلول مشاكل الألوهية والنفس والتناسخ والحياة الأخرى والمعرفة والمفاهيم الذهنية والتعريفات العامة والمثل، وفى المنطق بالمقولات والقياس والاشكال والتعقلين: الصعودي والنزولي والاستقراء والحجج اليقينية والاقناعية والظنية والخطابية والارتيابية والسفسطة والتلاعب بالألفاظ، وفي الفلسفة الطبيعية سبقوهم بمعرفة العناصر الخمسة واكتشاف تجاوب كل حاسة من حواسنا مع عنصر من هذه العناصر كما سبقوهم إلى نظرية الذرة وإلى تركيب الجسم ذهنيا من الهيولي والصورة وإلى معرفة أن الأولى ثابتة والثانية حائلة زائلة. وفى الأخلاق كذلك سبقوهم إلى معرفة الضمير والواجب وبواعث أعمال الانسان والمسئولية الخلقية وحرية الارادة وتكون الخلق وعمومية القانون الأخلاقي وإطلاقه» (نفسه، ص344 - 345).

وكما شغل د. غلاب فى تأريخه للفلسفة الشرقية القديمة ببيان مدى تأثيرها على نشأة وتطور الفلسفة اليونانية، شغل أيضا فى معرض تأريخه للفلسفة في العصور الوسطى والفلسفة الاسلامية ببيان تأثير الفلسفة والعلوم اليونانية على الحضارة والفلسفة الاسلامية، وكان يجاهر بأن العلوم الإسلامية مؤسسة منذ بدء نشأتها على علوم اليونان وأفكار اليونان، بل وعلى أوهام اليونان، وكان ينبه إلى أن تاريخ الفلسفة اليونانية كالمقدمة الضرورية لتاريخ التمدن الإسلامي، «لا يسع أحدًا من هذه الأمة إهماله، ولا طالب الحكمة جهله». (الفلسفة الاغريقية، ج1، الطبعة الاولى، القاهرة 1938م، ص10) وليس معنى ذلك المغالاة فى رد كل مظاهر التمدن الاسلامي لتأثير اليونان على المسلمين؛ فهو يرفض هذه المغالاة فى تقدير قيمة فلاسفة اليونان إذ أن بعض العلماء الأوربيين بالغوا مبالغة شديدة فى «تقدير هؤلاء القوم والحكم عليهم فعزوا إليهم كل كمال ونزهوهم عن كل نقص» (نفسه ،ص10). والحقيقة التي سعى د. غلاب إلى تأكيدها هنا مرة أخرى هي أن اليونان وانجازاتهم الفكرية لم تكن بمعجزة فكرية قاموا بها بل كانت نتيجة طبيعية لأخذهم عن الأمم الشرقية السابقة «فهذه الأمة اليونانية قد استفادت من الشعوب الشرقية المتمدينة فى الصور الأثرية فلسفة وعلما وأدبا وفنا ثم حملت كل ذلك إلى ربوعها فتذوقته وهضمته ثم أعملت فيه عبقريتها الممتازة فأخرجت انتاجا خاصا جليلا أنار للانسنية كلها سبيل الحياة العقلية» (نفسه، ص13).

لقد كان د. غلاب يرى أن فلاسفة المسلمين استعاروا من الإغريق أدوات النظر الفكري كالمنطق، كما استعاروا عناصر فلسفتهم الطبيعية، ومبادئ فلسفتهم العليا، وما إلى ذلك من الأسس التي أعدها أولئك الفلاسفة العظماء من الإغريق، بيد أنه كان يضيف إلى حكمه هذا اقتناعه أو تبنيه للحقيقة القائلة بأن فلاسفة الإسلام مارسوا النقد تجاه هذه القواعد والفلسفة، «فلما وجدوا أنها لا تتعارض مع العقيدة عضوا عليها بالنواجذ، واستفادوا منها أعظم استفادة ممكنة»، وكان يلفت النظر إلى أن القرآن الكريم هو المنبع الرئيسي الذي منه نهل أولئك الأعلام رحيق الحكمة العالية، وكان أول من نبهوا إلى أن القرآن هو أول كتاب سماوي فرض تعلم الفلسفة على أتباعه فرضًا، وأوجب عليهم التفكير في أسرار الكون وخفايا الوجود.

ولم يقتصر اهتمام الدكتور غلاب على مجالي الفلسفة القديمة والفلسفة الإسلامية، بل امتد ليشمل الفلسفة الحديثة، وقد علل هذا الاهتمام بأنه كان ينبغي توطيد دعائم الصلة بين ثقافتنا

وبين الفلسفة الحديثة حتى «نبرهن على أننا نحيا لأنفسنا وفي عصرنا، لا للأقدمين وفي عصرهم كما يقال عنا». لقد أرخ د. غلاب للفلسفة الأوربية الحديثة في كتاب حمل عنوان «المذاهب الفلسفية العظمى فى العصور الحديثة» مما يشي أنه سيقتصر على الحديث عن المذاهب الفلسفية الكبرى وأهم فلاسفة العصر الحديث، ولكنه فيما كتب كان واعيا بأنه لولا سبق عصر التهضة لما كان هناك العصر الحيث الذي ازدهر فيه الفكر الفلسفي على يد الفلاسفة الكبار من أمثال فرنسيس بيكون وديكارت مؤسسي التيارالتجريبي من جهة، والتيار المثالي العقلاني من جهة أخرى، ولذلك بدأ من الحديث عن عصر النهضة باعتبار «أنه كان اعدادا طبيعيا لا محيص عنه للقرن السابع عشر» (المذاهب الفلسفية العظمى فى العصور الحديثة، دار احياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي، القاهرة 1948م، ص4)، وتحدث عن أسباب النهضة ونتائجها ثم عن التيارات الفكرية في عصر النهضة مقسما إياها إلى التيار الأفلاطوني، التيار الآرسطي، التيار الأخلاقي، والتيار العلمي. وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن مميزات الفلسفة الحديثة محددا إياها في ميزتين أساسيتين؛ «أما الأولى فهي اتمام فصل الفلسفة عن اللاهوت أو تحرير العقل من العقيدة .. والثانية هى أن مشكلة المعرفة وضعت على صورة جديدة» (نفسه، ص46)، وعرض بعد ذلك لأعلام الفلسفة الحديثة من بيكون حتى ليبنتز وجاسندي، أي أنه توقف عند فلاسفة القرن السابع عشر فقط.

وإلى جانب اهتمامه بتاريخ الفلسفة بصفة عامة اهتم بدراسة بعض القضايا الفلسفية الخاصة فخصص لمشكلة المعرفة عند مفكري المسلمين كتابًا كبيرًا، كما خصص لمشكلة الألوهية كتابًا مستقلاً تناول فيه هذه المشكلة من وجهات النظر الاجتماعية والعقلية والروحانية، أي من منطلق الفكر الإنساني، ليبين كيف كانت رحلة هذا الفكر في عصوره المختلفة، ولدى الشعوب المختلفة حول هذه القضية.

ويذكر للدكتور غلاب اهتمامه بالدراسات الاستشراقية، حيث نشر عدة بحوث عن الاستشراق فى كتاب حمل عنوان «الاسلام كما يراه الأوربيون « عرض فيها لآراء بعض المستشرقين حول الاسلام، والملاحظ أنه كان يوسع من دائرة مصطلح المستشرقين فيدخل فيه كل الباحثين الغربيين، الذين تناولوا الإسلام من قريب أو من بعيد، سواء كانوا من المستشرقين بالمعنى الضيق لهذا المصطلح، أومن مؤرخي الأديان، أو من علماء الاجتماع أومن

المهتمين بالشئون السياسية، ممن لهم مذاهب ونظريات أو غايات وأهداف، أو حتى من رجال الصحافة ممن لهم شهرة وأتباع. وقد ميز بين مرحلتين من مراحل الاستشراق يفصل بينهما القرن التاسع عشر؛ حيث كان بعضهم قبل ذلك يدفعهم التعصب دفعا إلى الصاق الاتهامات المشينة بالاسلام مدعين أنهم ينظرون إلى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية نظرة النقد الحر والتمحيص البرئ ولكن هذا النقد لم يكن متفقا مع واقع الحال في كثير من الأحيان، بل كان في الغالب مدعاة للسخرية والاستهزاء أكثر منه مبعثا للجدل والنقاش، واستشهد د. غلاب على ذلك بقول درمنجم: يجب الاعتراف بأن اساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر مما كانت من جانب الشرقيين، فلقد هب كثير من الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين يهاجمون العرب بتهم باطلة بل متناقضة. كما استشهد كذلك بقول كارادي فو: أن محمدا ﷺ ظل وقتا طويلا معروفا في الغرب معرفة سيئة، فلم توجد خرافة ولا فظاظة إلا نسبها إليه؛ ومن ذلك ماتحدثنا به قصيدة رولان - وهي إحدى أهم منتجات العصور الوسطى على الإطلاق - بأن فرسان شارلمان قد أسقطوا الأصنام الاسلامية وأن العرب كانوا يعبدون ثالوثا مؤلفا من محمد وابوللون وبترفاجان!!! وقد انتقد د. غلاب ذلك مؤكدا أن هذه أضلولة وضيعة وسخيفة لاتنم عن جهل بحقيقة الاسلام فقط وإنما عن سوء النية أيضا؛ فالاسلام غايته المثلى فى التوحيد، والحاح القرآن على اثبات انفراد الله تعالى بالعبادة الحقة، ومحاربة الوثنية، وازالة النبي اياها من فوق جدران الكعبة، كل ذلك يوضح رأي الاسلام فى التوحيد، بل إن كلمة الاسلام التي لايثبت إلا بها وهي كلمة لاإله إلا الله هي نفسها حملة قاسية على الأوثان والوثنية.

أهم المصادر والمراجع

د. محمد غلاب:

- الفلسفة الشرقية، بدون دار نشر، القاهرة 1938م.
- الفلسفة الاغريقية (ج1، ج2)، بدون دار نشر، القاهرة 1938م.
- المعرفة عند مفكري المسلمين، مراجعة الأستاذ عباس العقاد والدكتور زكي نجيب محمود، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966م.
- الفلسفة الإسلامية في المغرب، من جمعية الثقافة الإسلامية، القاهرة، 1948م.
- المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1948م.
- مشكلة الألوهية، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1951م؛ -الفلسفة الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، 1950م.
- نظرات استشراقية في الإسلام، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.

د. محمود زقزوق:

- موسوعة أعلام الفكر الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 2004م.
- د.محمد عبد الفضيل القوصي، فيلسوف أزهري رائد، www.waag-azhar.org/mkalat16.aspx.